مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

ملف خاص:

المخطط الاستعجالي للتربية والتكوين (2009-2011)

العدد الثاني والأربعون- يناير 2010

الطفل و إبداع المعرفة الاستعارية

إبراهيم أسيكار
(باحث في التواصل وتحليل الخطاب

مثل اعتماد الطفل على الاستعارة جزءا من تجريب ذهني غايته تجاوز العوائق المثبطة والمقلصة لوثيرة تواصله مع ذاته و محيطه.

من هذه الملاحظة، يتبين لنا أن الاشتغال الذهني عند الطفل ليس اشتغالا نمطيا يتبع مسارا واحدا و لا يشرئب إلى الاستزادة و التغيير المعرفيين، إنه على العكس من ذلك اشتغال ذهني إبداعي يتوق إلى الجديد و يرغب في الابتكار. ولو تساءلنا مع روبر سيغلر « لماذا يكتشف الأطفال أشكالا جديدة للتفكير؟ فينبغي أن نفهم أنه ليس بمقدورهم أن يفعلوا غير ذلك». [1]

و إذا كان الأمر كذلك، أمكننا القول: إن الخصوصية الاستعارية التي تعكسها لغة الطفل منذ سنته الثانية تقريبا، هي جزء من القدرة الفطرية على الإبداعla création التي تلبي لكل طفل الحاجة إلى تحقيق الذات و إثباتها. و هي حاجة أساسية من بين حاجات أربع أخريات يراها ماسلوMaslow ضرورية لكل طفل. و هي الحاجات الفيزيولوجية و الحاجة إلى الأمن و الحاجة إلى الانتماء و الحاجة إلى التقدير.

المعرفة الاستعارية عند الطفل

لقد دارت نقاشات كثيرة في حقل السيكولوجيا، حول موضوع الاكتساب المعرفي عند الطفل، بيد أن أهم ما غيبته هذه المناقشات هو مسألة الإبداع الاستعاري للغة الطفل و ذلك من حيث نوعيتها و آلياتها ووظيفتها ... ضمن هذا الإطار و بصرف النظر عن غموض مفهوم الإبداع، يفيدنا نور الدين الزاهي بأن

« الطفل المبدع هو ذاك الجريء الذي لا ينقطع عن طرح الأسئلة غير المنتظرة و المفاجئة، و الذي يضع كل ما يتعلمه موضع تساؤل . فالإبداع إذن بحث عن اللايقين ، لأن الطفل حينما يمتلك شيئا ممنوحا له ، فإنه لا يتعلم ، إنه لا يبتدئ في التعلم إلا حينما يحس أن ما يتعلمه كأنه موجود لديه بشكل مسبق. و ما يوجد لديه بشك مسبق هو زاوية نظره تجاه عالمه و الأشياء المحيطة به» .[2]

يهمنا من هذا التحديد، أن حُبّ الاستطلاع و المفاجأة اللذين يجعلان الطفل يتعجب و يندهش إزاء الأشياء التي حوله، هي التي تجعل تفكيره تفكيرا إبداعيا تُظهره اللغة على شكل استعارات، هذا على الرغم من أن الراشدين الأكبر منه سنا، عادة ما يستخفون بهذه الدهشة و ما يولّده الطفل منها من معرفة إبداعية استعارية، لا لشيء إلا لأنها تناقض ما يُفترض أنه حقيقة. و مردّ هذا الاستخفاف أيضا إلى كون المُربي في مثل هذه الحالات « لا يرى الطفل كطفل، و إنما يرى فيه الطفل الذي يجب أن يصبح راشدا بأقصر الطرق ، و في أقصر مدة، و بأقصر التكاليف» [3] ، هذا مع العلم أن التفكير الإبداعي الذي ينجم عن دهشة الطفل و عدم إحساسه بالألفة هو من أرقى الوظائف الذهنية لدى الكائن البشري بصفة عامة. و ربما لهذا الاعتبار ألح استون ميالاري ـ حسب ما نقل عنه أحمد أوزي ـ على أنه « ينبغي أن لا نعلّم فقط البحث عن حلول للمشاكل الجديدة وفق الحلول السابقة التي تم إيجادها، و إنما ينبغي تعويد الطفل على الاندهاش و اكتشاف الحلول الجديدة، لأن المعرفة تبدأ بالدهشة و تنتهي بالدهشة» [4].

و نتصور أن هذه الدهشة هي المسؤولة عن خرق تفكير الطفل لكل قوانين المنطق التقليدي الذي حدده أرسطو وفق مقاس عقل الإنسان الراشد. و إذا كان تفكير الطفل كذلك، فمن غير المشكوك فيه أن كل طفل قادر منذ سن الثانية على الأقل من عمره على إنتاج المعرفة الاستعارية التي تمثل أكثر أنماط المعرفة الإنسانية خرقا لقوانين المنطق التقليدي. إذ « بواسطة الاستعارة يمكن خرق مبدأ الهوية بالقول بان الشيء ليس هو، كما يمكن توسطها لخرق مبدأ عدم التناقض بتصورنا لعالم يكون فيه القول و نقيضه صادقين في نفس الآن، و كذا لخرق مبدإ الثالث المرفوع بتخيل عام لا تكون فيه العبارة و نقيضها صادقين» . [5]

و لكي يتضح ما سلف، نقترح فيما يلي جملة من الاستعارية التلقائية التي مكننا منها آباء مجموعة من الأطفال الناطقين بالدارجة المغربية، و الذين تتراوح أعمارهم ما بين سنتين و ثمان سنوات.

الإبداع الاستعاري	المناسبة
* قول الطفل بعد انفصال رأس الأضحية عن الجسد: «لم تعد للخروف قبعة!»	* ذبح أضحية العيد
* قول الطفل مستفهما: «أ تنزعون للخروف ملابسه؟ «	* سلخ جلد أضحية العيد
* قول الطفل مشيرا إلى المصباح: «إنها شمعة»	* خفوت ضوء مصباح كهربائي
* قول الطفل ضاحكا: «لقد احترق كله!«	* مشاهدة شخص أسود لأول مرة
* قول الطفل مشيرا إلى القمر: «إنها كرة بيضاء»	* توسط القمر صفحة السماء في ليلة مقمرة
* قول الطفل مشمئزا: «وجهك تؤلمني أشواكه»	* رفض الطفل تقبيل وجه والده غير الحليق
.....	.....

إن إنعام النظر في مجموع هذه الاستعارات التي أفصح عنها هؤلاء الأطفال في مناسبات مدهشة و مفاجئة بالنسبة إليهم، يشف لنا عن معطى مؤداه، أننا بصدد تعابير إبداعية استعارية تصدق عليها المقاييس الأساسية للإنتاج الإبداعي كما سَطَّرَها كل من ويلسونWilson و ويلفوردGuilford و كريستنسنChristensen، أي:[6]

- كون التعليق طريفا و نادرا في الوسط الاجتماعي المعني.
- كون التعليق طريفا و أكثر براعة بحسب مجموعة من الحُكام.
- كون التعليق طريفا، و يربط عناصر معرفية بتجارب أكثر تباعدا.

و إذا كانت كل التعابير الاستعارية السابقة تنطوي على قدر غير يسير من الطرافة و البراعة بالنسبة إلينا نحن الراشدين، فإن ذلك يعزى أساسا إلى امتلاك منتجيها لأهم القدرات التي يتوقف عليها الفعل الإبداعي في نظر وردونGordon ، أي:[7]

- القدرة على إقامة المشابهة.
- الفضول المعرفي.
- الاستعداد و التهيئ.

و يتجلى فضول هؤلاء الأطفال الذين نحن بصدد استعاراتهم، في اندفاعهم التواصلي، الذي يعكسه تعبيرهم التلقائي المجسد لحالة شعورية غير عادية (الاستفهام / الضحك / الاشمئزاز...). أما قدرتهم على عقد المشابهات فبوسعنا إبرازها على النحو الآتي:

رأس الخروف ← قبعة الإنسان

جلـــد الخروف ← ملابس الإنسان

خفوت ضوء المصباح ← ضعف ضوء الشمعة

سواد البشرة ← سواد الدخان أثناء الاحتراق

استدارة القمر ← استدارة الكرة

حدة الشعر ← حدة الشوك

في ضوء مجموع هذه المشابهات، لابد أن نسجل أن التعابير الاستعارية لهؤلاء الأطفال هي من قبيل ما يسمى بالاستعارات الاضطرارية، و هي نمط من الاستعارات التي يلجأ إليها الأطفال عادة، عندما يكونون في وضع حبسة تواصلية ناجمة عن فقر معجمي، لا يمكن تجاوزه إلا بأحد الشروط التي حددها ميدنيك Mednick كحلول إبداعية و هي:[8]

- الصدفة.
- المشابهة.
- الوساطة.

و هكذا فالمشابهة و الوساطة باعتبارهما آليتين إبداعيتين، هما اللتان مكنتا الطفل في التعابير الاستعارية السابقة، من أن يسمي رأس الأضحية الذي يجهل اسمه باسم القبعة التي يعرف اسمها، تماما مثلما مكنته نفس الآليتين من تسمية جلد الأضحية الذي يجهل اسمه باسم الملابس التي يعرفها و هكذا دواليك مع بقية التعابير الاستعارية. و من المفيد أن نسجل هنا أن اعتماد وساطة المشابهة في مجموع الاستعارات الاضطرارية السابقة، يعزى إلى كون الطفل ـ حسب ما يرى عبد الإله سليم ـ « يكتشف الجديد كل يوم، و يحتاج إلى التسمية كل لحظة. و لكي يتجاوز هذا المشكل، فإنه يلتجئ إلى تسميات مُخَزّنة و مُمَقْوَلَة اعتمادا على تجارب سابقة، و يسقطها على الموضوعات الجديدة التي يصادفها حتى لا تشذ عن التسمية»[9].

أما جان بياجي Jean piaget فلئن أدت به النظرة الطَّورية Stadiste إلى تأجيل القدرة على إنتاج المعرفة الاستعارية لدى الطفل إلى مرحلة العمليات الذهنية المجردة، فإنه استطاع مع ذلك أن يقف عند أهم الخصوصيات الذهنية الفاعلة في جزء من الاستعارات الاضطرارية لدى الطفل، و هذه الخصوصيات هي:[10]

1 ـ الإحيائيةl'animisme:

بموجب هذه الخصوصية يستطيع الطفل أن يمنح الحياة و الشعور و القصدية لظواهر العالم الخارجي كالغيوم و الشمس و القمر. فالشمس تشرق لأنها تعرف و تريد ذلك، و تحب أن تمنحنا الدفء.

2 ـ الاصطناعية: l'artificialisme

تشمل هذه الخصوصية التمثلات المرتبطة بمصدر و أصل الأشياء ، إذ يربط الطفل بموجب هذه الخصوصية وجود الأشياء بقوة إلهية أو بشرية، فالجبال صنعها إنسان جبار مثلا ..

3 ـ الواقعية: le réalisme

مع هذه الخصوصية يدرك الطفل الأشياء من خلال تأثيرها المباشر أو عبر نتائجها المحسوسة، غير أنه يبقى عاجزا عن تفسيرها و تحليلها منطقيا من خلال ربطها بالأسباب المعقولة.

خلاصات:

بعد أن وقفنا فيما تقدم عند نماذج الإنجازات الاستعارية لدى الطفل، فضلا عن إبراز بواعثها و ما يقف وراءها من عمليات ذهنية ، يبقى من المهم أن نخرج مما سلف بالملاحظات الآتية:

- الطفل كائن تواصلي يميل بالفطرة إلى إضفاء الدلالات على الأحداث و الوقائع السلوكية التي تصادفه، و ذلك وفق منطق استعاري.
- الاستعارة الاضطرارية وسيلة معرفية تمكن الطفل من تجاوز الحبسات التي تعترضه في مختلف المناسبات و الوضعيات التواصلية.
- ورود استعارات اضطرارية لدى أطفال السنة الثانية على الأقل ، يفند التصور الذي يقرن قدرة الطفل على التفكير الاستعاري بمرحلة العمليات الذهنية المجردة .
- تصدر الاستعارات الاضطرارية لدى الطفل عن فعل الإحساس بالدهشة و الرغبة في معرفة كل الظواهر الجديدة التي تعترضه.
- ورود الاستعارات الاضطرارية لدى الطفل يؤكد مدى أسبقية تعامل الذهن البشري مع المجاز قبل الحقيقة، عكس ما يتصور الفكر البلاغي التقليدي.
- تواصل الأطفال بالاستعارات، يعكس أن هذه الأخيرة ليست دائما لأغراض جمالية و فنية، مثلما ألحت على ذلك الأبحاث البلاغية التقليدية منذ أرسطو إلى الآن.

الهوامش

1 ـ روبرت سيغلر: (التفكير لا يخضع للتقسيم العمري) ، مجلة : علوم التربية ، عدد : 24 ، سنة : 2003 ، ص: 98.

2 ـ نور الدين الزاهي: (أسئلة التعلم) ، مجلة : المربي، السلسلة الجديدة، العدد: 6، سنة: 1996، ص: 5.

3 ـ حميد لشهب: الله و الطفل، منشورات : حلول تربوية ، إنزكان ، ط: 1 ، سنة : 1988 ، ص: 37.

4 ـ أحمد أوزي: (البيداغوجيا المعاصرة) ، مجلة : علوم التربية، العدد: 9، سنة: 1993، ص: 21.

5 ـ حسان الباهي: الحوار و منهجية التفكير النقدي، دار إفريقيا الشرق ، الدرا البيضاء، ط: 1 ، سنة : 2004 ، ص: 103 – 104.

6 - Michel – Luis Rouquette : la créativité ,puf , paris , 1981 , p : 17.

7 - Michel – Luis Rouquette : op, cit, p : 75.

8 - Michel – Luis Rouquette :op, cit , p : 19.

9 ـ عبد الإله سليم: بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ط : 1 ، سنة : 2001ص: 76.

10 ـ علمي إدريسي عبد الرحمن: (تطور التفكير السببي لدى الطفل) ، مجلة : علوم التربية، العدد: 25، سنة: 2003، ص: 40.